وكأنَّها تَدْعوه إلى رحلة فيها الكثيرُ من الدفء والدعة. نعم هناك جرأة في المواقف وفي التصوير، لكنَّ اللُّغة ـ بحدّ ذاتها ـ رخيّة، كمن يستظلّ شجرةً في قيظ الهاجرة. فلا أثرَ للتوتّر الذي يَنْعكس عنفًا وغرابةً في التعبير. ولعلّ الشيخوخة جعلتْ إدريس ليِّن المراسَ، طليَّ الأسلوب، يكتب على السجيّة، يَنْفث في ألفاظه مفعولاً مخدِّرًا، ناجمًا عن الذكريات التي تَنْقل المرءَ إلى ضفّة الماضي السعيد.

على أنَّ الكتاب، وإنْ أتى حلوًا، ساخرًا، وديعَ العبارة، شابتْه بعضُ التطويلات، كمثل ذلك الكمّ الهائل من الرسائل التي تبودلت مع أنور المعدّاوي. لقد كان من الممكن اختصارُ تلك الرسائل، أو نقلُ مضامينها بطريقة سرديّة. وما من ريب أنَّ التنويع مطلوب في أدب السيرة ما بين رسالةٍ، ونادرةٍ، وبوحٍ حميم، ووقائع تاريخيَّةٍ؛ ولكنْ أن تستطيل تلك الرسائلُ حتى تأخذَ حيّزًا كبيرًا من الكتاب، فأمرٌ قد ينمّ عن إعجاب شديد بالمعداوي. وقد يتّفق ذلك مع منطق التاريخ، غير أنَّه يتناقض وفنَّ السيرة.

زدْ أنَّ المؤلف، على جرأته، كان بمقدوره الغوصُ عميقًا في ذاته، كأن يكشف النقابَ أكثرَ عن مشكلته مع والده، أو أن يَرْسم صورةً أكثرَ دقةً عن والدته.

النفق المظلم

لا يسعني أخيرُ إلاَّ أن أَهْتف قائلاً: شكرًا لسهيل إدريس على هذه الجرأة. لقد شبعنا كذبًا وخداعًا، و«عنترياتٍ ما قتلتْ يومًا ذبابة،» كما يقول نزار قبّاني. نعم. لقد مللنا بعضَ الأدباء الذين يصوِّرون أنفسَهم وكأنَّهم طُهروا في الأرحام، وتاقت نفوسُنا إلى الاستحمام بأشعة الشمس عراةً إلاَّ من طهارة الصدق وتواضُع الضعفِ النبيل. وإذا كان إدريس رجلَ الهُوى والتُّقى، والمبشِّرَ بأدب التعرية، فهل سينحو هذا النحو في الجزء الثاني من الكتاب الذي سيتناول مشاكلَ حساسةً كالبيت والزواج وما شابه؟ إنَّ في بعض الاعترافات آلامًا نُسبِّبها لمن لايزال حيّاً يُرْزق؛ لكنَّ إدريس آلى على نفسه أن يَدْخل نفقًا مظلمًا، ثم أن يخرج منه وقد تعمَّدَ بنورٍ طهور. والحقيقة أنَّ ما من بشريّ بَلَغَ الكمالَ، فلماذا الخداع والتدجيل، ونحن مَنْ يرضع الكذبَ من حليب أمهاتنا حتى تَسْتحيل حياتُنا، أحيانًا، كذبةً هائلةً مروّعة؟

قل الحقيقةَ يا إدريس دائمًا، وتجرّع المراراتِ علّها تتحوّل ـ كما يعبِّر جبران ـ إلى حلاوةٍ ما بعدها حلاوة.

بيروت

ملفّات الأعداد القادمة

- مصادرات العقل العربي في القرن العشرين: الرقابة العربية.
- منْ يموّل الثقافة العربيّة؟
- الملحق النظريّ ـ السماعيّ.
- ملحق الاختلاف الجنسيّ.